أخطأ فلان

الخطأ من طبيعة الإنسان، ولا يسلم منه إلا من عصمه الله من أنبيائه ورسله، و«لكل الناس نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضلون بكثرة المحاسن، وقلة المساوئ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ، دقيقها وجليلها، ظاهرها وخفيها، فهذا لا يعرف فيهم»[(١)].

وهذا الأمر معلوم عند الناس، متقرر لديهم؛ لكن عند التطبيق يفشل كثير منهم في اعتباره وإعماله؛ فتراه يتعامل مع الآخرين بالمثالية التي لم يبلغها مع نفسه؛ فيشنِّع عليهم بالزلة، ويحاسبهم على الهفوة، ومَن تطلَّب المثالية والكمال في الناس، فقد رام محالاً، وطلب ممتنعاً، ومبتغي ما لا يكون، مَكْدودٌ مُعَنًّى على ما قال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتباً ... صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ

فعشْ واحداً أو صلْ أخاك فإنهُ ... مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبُهْ[(٢)]

وفيما يأتي ذكرٌ لأمثلة لهذا الداء:

(١) ينظر: مجموع الرسائل للجاحظ (ص٢٠١).

(٢) ديوان بشار بن برد (١/ ٣٠٥).

يمضي العالم عمره في نشر العلم تأليفاً وتدريساً، ويأتي منه الخطأ مرة في فتوى أو تأليف، فيحاسب على عدم الصواب، ويغلظ معه في الخطاب، دون اعتبار لماضيه الجميل، وعطائه المشرق!

ويقطع المعلم من عمره سنين متطاولة موجهاً ومربياً، ثم يقع منه الخطأ، فينسى المجتمع عمره التعليمي، ويغفل عن جهده التربوي، ويحصر تاريخه بهذا الخطأ!

ويكون الرجل إماماً أو خطيباً أعواماً عديدة، منضبطاً في أوقاته، محافظاً على صلاته، مفيدة خطبته، ظاهرة فصاحته، فيحصل منه الخطأ مرة في صلاته، أو خطبته، فيتروى الناس خطأه، وينسون انضباطه وإتقانه!

ويكون الصديق مع صديقه محمود الفعال، جم المحامد، فيقع منه التقصير مرة، فينتبذ عنه صاحبه مكاناً قصيّاً، ويتخذه وراءه ظهريّاً.

ويكون الأخ مع إخوته ذا خير وأفضال؛ فتصير منه بعض الأخطاء؛ فيحاسبه إخوته ويهجرونه، ومعروفه السابق لا يعتبرونه.

وتكون الزوجة مع زوجها حسنة السيرة، طيبة السريرة، فيقع النقص منها مرة، فيعزم الزوج على هجرها الهجر المبين، ويقسم على ذلك باليمين.

وهذه الأفعال تجافي قواعد الشرع، وتخالف ميزان العدل، وتجانب أصول الإنصاف.

ولقد قال الإمام ابن حزم كلمة شافية في علاج هذا الداء، فقال: «من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وجه تعسفه»(١).

نعم تصور نفسك أنك وقعت في خطأ مرة؛ فهل تود حينها أن يغلظ معك في الخطاب، ويهجرَك الأصحاب؟

ولقد أعطانا الرسول ﷺ قاعدة في التعامل مع أخطاء الناس، فقال: **«لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً، رضي منها آخر»**(٢).

وهذا الحديث وإن كان وارداً في العلاقة بين الزوجين إلا إن التوجيه الذي يحمله يصلح تعميمه في التعامل مع من نخالطه من الناس من ولد وجار وصديق وزميل عمل.

وتأملوا في قصة الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي أخطأ فأرسل إلى كفار قريش كتاباً يخبرهم فيه بعزم الرسول ﷺ وأصحابه في التوجه إلى مكة لفتحها، فأنزل الله فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] **فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا**

---

(١) الأخلاق والسير، لابن حزم (ص٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩).

المنافق! فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»»[(١)].

فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من عقوبته ما لَه من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما لَه من الحسنات، على ما قال ابن نباتة المصري:

وإذا الحَبِيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءتْ مَحَاسِنُه بألف شَفِيعِ[(٢)]

فلا يُذْكر في كتب التراجم والسير أن صحابيّاً عيَّر حاطباً بهذا الذنب، وقد عاش سنين عدداً بعد موقفه هذا!

لقد أُقفل ملف القضية بعد قول النبي ﷺ مباشرة.

وفي هذا يقول سيد التابعين سعيد بن المسيب: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب؛ ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أن من غلب عليه نقصانه ذهب فضله»[(٣)].

وأكد هذا المعنى ابن القيم فقال: «من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته، وعظمت وكان له في الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٢) ديوان ابن نباتة المصري (١/ ٣٤٢).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٨).

تأثير ظاهر، فإنه يُحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قُلَّتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه يحمل أدنى خبث يقع فيه»[(١)].

وهنا حادثة حسنة في هذا الشأن حصلت للإمام أحمد مع المحدث الكبير الحميدي، يرويها الحميدي نفسه، فيقول: «كان أحمد بن حنبل قد أقام عندنا بمكة، على سفيان بن عيينة، فقال لي ذات يوم، أو ذات ليلة: هاهنا رجل من قريش، له بيان ومعرفة، فقلت له: فمن هو؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي، وكان أحمد بن حنبل قد جالسه بالعراق، فلم يزل بي حتى اجترَّني إليه.

وكان الشافعي قُبالة الميزاب، فجلسنا إليه، ودارت مسائل، فلما قمنا، قال لي أحمد بن حنبل: كيف رأيتَ؟ فجعلت أتتبع ما كان أخطأ فيه ـ وكان ذلك مني بالقرشية؛ يعني: من الحسد ـ فقال لي أحمد بن حنبل: فأنت لا ترضى أن يكون رجل من قريش يكون له هذه المعرفة، وهذا البيان! تمر مائة مسألة يخطئ خمساً أو عشراً، اترك ما أخطأ، وخذ ما أصاب.

قال الحميدي: «وكان كلامه وقع في قلبي، فجالست

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠٤).

الشافعي فغلبتهم عليه..»[١].

فما أجمل كلمة الإمام أحمد: «اترك ما أخطأ، وخذ ما أصاب»؛ إذ الخطأ لا يسلم منه أحد، وما أسعد الحميدي لما أخذ بنصيحته؛ إذ لو استسلم لرأيه لفاته علم هذا البحر الزخار.

إن شيوع هذا المنهج في الناس سبيل لائتلاف قلوبهم، واجتماع كلمتهم، وأن يعذر بعضهم بعضاً، وأن يعامل بعضهم بعضاً بواقعية.

اللَّهُمَّ ارزقنا الإنصاف، وزينا بزينة الإيمان.

(١) آداب الشافعي ومناقبه (ص٣٤).